مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

المصدر: الاتحاد

التاريخ: ٢٠٠١/٦/٢٨

السادات.. هيكل.. محاولة للحكم

تعقيبا على «قراءة جديدة في كتاب هيكل القديم (خريف الغضب)» ومقالته الجديدة «وقفة مع الصديق الأميركي» وردت إلى «المكتبة» عدة مقالات من الإمارات ومصر والأردن.. ولأن الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل يستحق أن يكتب عن

كتاباته.. ولأن المكتوب عنه «موضوع المقال والكتاب» الرئيس المصري الراحل أنور السادات يستحق أيضاً، وعملاً بحق الرد والتعقيب ننشر أربع مقالات دون أي تدخل لا في عناوينها أو نصها..

نعم.. فالكتاب الكبار كالفرسان.. أحصنتهم الكلمة، والفكرة والحياة.. وحساسية التناول...الخ.

لكن هذه الحقائق المجردة - وارجو المعذرة - قد لا تكون فقط هي الاساس في انتشار الكاتب، ولا هي فقط الرافعة التي تحمله الى عالم الشهرة. وتضفي على كتاباته المصداقية التي هي الاساس. و «البذرة الطيبة» التي تتحول الى نبتة تمتد جذورها في اعماق الأرض.. وترتفع افرعها الى الفضاء.

فكما هو الحال بالنسبة لأية بذرة. لابد لها من بيئة مناسبة. وتربة خصبة وغذاء كاف. لكي تنمو. وتحصل على نصيبها من الحياة، الى ان تثمر وتسهم في إطعام من حولها. أو على الأقل المساهمة في اسعادهم بظلالها الوارفة، ومنظرها الجميل.

هذا برأيي المتواضع - ما يمكن ان يسهم في اكمال الصورة التي حاول ايمن شرق رسمها من خلال مقالته القيمة: هيكل رد الاعتبار للسادات بعد ربع قرن.. وهي المقالة التي اتفق مع مضمونها، وأرى أنها القت الضوء على جانب مهم من جوانب النقاش السياسي الذي كان ومايزال دائرا. بخصوص حقبة مهمة من تاريخنا السياسي والتي لا تقتصر آثارها على فترة معينة أو بلد معين. وتؤكد مقولة «كلنا في ألهم شرق».

هذه المقالة - كما أعلم - أثارت اهتماما واسعا بين اوساط القراء والمتابعين في زاوية معالجتها لظاهرة اشعلت الشارع السياسي العربي وشدت المثقفين والمهتمين مع مراعاة ان الشارع العربي أصبح كله سياسيا.

انها ظاهرة الكاتب العربي الكبير، محمد حسنين هيكل أولا، وظاهرة هجومه على الرئيس الراحل أنور السادات ثانيا. وتحرشه بالعديد من الزعماء العرب. ولكن بعد وفاتهم. وبعد أن ودعوا هذه الدنيا. وانتقلوا الى العالم الآخر. بعيدا عن احتمالية ممارسة «حق الرد» أو «التوضيح» وحتى «التكذيب».

فمن حيث المبدأ ارغب بتأكيد قناعتي بأنه لا يمكن الفصل بين «شهرة هيكل» وبين البيئة التي نشأ فيها واقصد «بيئة عبدالناصر» والذي هو صاحب الفضل بالنسبة له، ومصدر شهرته و «ولي نعمته». بكل ما تحمل هذه العبارة من معان، سواء أكانت معاني مادية - أو غيرها. خاصة وان المعلومات المتوفرة تؤكد ان الجانب المادي كان بارزا في حياة هيكل. على عكس السادات. الذي «مات فقيرا» ولم يترك «الملايين».

فقد قدم هيكل نفسه كشخص مبدع - من زاويتين:

الأولى: اسلوبه المشوق، وقدرته على اختيار الالفاظ وربطها وتوظيفها في حبكة اقل ما يقال عنها، أنها فريدة. وذات نكهة خاصة، تدخل الى القلوب مباشرة. وتفرض نفسها على القارئ. لتشده لها حتى النهاية. اضافة الى ما تتركه من أثر في نفسه وعقله. وبالتالي التأثر بما يطرحه من أفكار حتى وان كانت بمستوى «المقولات».

وهذه الزاوية، ورغم انها في اغلبها هبة من الله. فإن الفضل للكاتب ينحصر في مجال جهوده على صقل هذه الموهبة، وتطويرها بكافة الوسائل المتاحة.

أما الثانية، فتتعلق بالمعلومة وتحديدا المعلومة الخاصة، والتي لا يمكن الحصول عليها الا من خلال القرب من صاحب القرار واكتساب ثقته، والدخول الى عالمه، بحيث يصبح الكاتب جزءا من مطبخه السياسي ويبدو ان ذلك ما ميز محمد حسنين هيكل فعلا، ودفعه الى ان يصبح ظاهرة فريدة من نوعها، ليس ككاتب

متميز. بل وكظاهرة سياسية فريدة من نوعها لاتمتلك إلا ان تنبهر بها حتى وان اختلفت مع بعض محطاتها.

فبعد أن امتلك المعلومة استطاع ان يوظفها بأسلوبه المتميز ليصبح ظاهرة عصره.. ولكي لانبتعد كثيرا عن محطتنا الرئيسية اقول إن قرب هيكل من عبدالناصر كان السبب الرئيسي في تكوين شخصيته، وصقلها، بحيث أصبح فيما بعد ظاهرة فريدة.. هذه الظاهرة الفريدة كانت محط اجماع لدى الشارع العربي من شرقه الى غربه. ومن شماله الى جنوبه ايام عبدالناصر.وفي الفترة اللاحقة التي اعقبت وفاته مباشرة.

لكنها - اي الظاهرة - لم تعد كذلك فيما بعد.

فقد اهتز العرش الذي كان يجلس عليه هيكل، والذي صنعه بحكم ما تمتع به من ثقة من قبل الزعيم الذي سحر العالم العربي كله، واشغل حكام العالم.

فرغم ان عبدالناصر، قد وضع في أولوياته، تحطيم العروش، الا ان هيكل استطاع ان يحافظ على عرشه الذي وظف كافة المعطيات والظروف المتاحة. من أجل بناء هذا العرش الخاص به.

اهتز هذا العرش بعد ان فجع العالم كله بغياب عبدالناصر فكانت النتيجة ان فقد هيكل توازنه. بحكم فقدانه لأهم عناصر ابداعه - الأمر الذي دفعه الى البحث عن بديل من أجل الحفاظ على ذلك العرش. وحاول استخدام رصيد عبدالناصر الشعبي من أجل تدعيم قواعد هذا العرش. خاصة وأنه لم يعد جزءا من المطبخ السياسي المصري. ولم يعد صاحب الحظوة عند السادات كما كان سابقا عند عبدالناصر.

ورغم المقولة التي تؤكد ان علماء النفس هم الأكثر قدرة على تشخيص هذه الحالة. الا ان بعض الاجتهادات تذهب الى الاعتقاد بأنه ركز على السادات من زاوية البحث عن نقيض لعبد الناصر.

ولعل فيما كتبه هيكل ضد الرئيس الراحل انور السادات، ما يعبر عن بعض الاسقاطات التي يمكن ان يفيد منها المتابع لهذه الحالة سواء أكان ذلك المتابع مثقفا، أم دارساً متخصصا أم سياسيا أم حتى طبيبا نفسيا نفسي.

فالسادات - من حيث المبدأ - شخصية سياسية بارزة، قادت مصر العربية في مرحلة حاسمة وتركت بصمات واضحة على مختلف جوانب الحياة في أكبر دولة عربية. اضافة الى تأثيرات صنائعه على الواقع العربي والدولي.

وبغض النظر عن وجود من يختلف مع أسلوبه في معالجة القضايا المصيرية سواء لوطنه أو للأمة العربية فإن الحياد الذي يشكل أساس الكتابة، يفرض حدا أدنى من الاحترام لشخصه حتى وان كان يعارض أسلوبه وما قاربه من خطوات مفصلية مهمة ومنها كامب ديفيد. التي - مهما اختلفنا معها - فإنها أعادت ارض سيناء الى السيادة العربية، وشكلت قاعدة لأسلوب استعادة الأرض. وتحقيق السلام اقتنعت به الدول العربية فيما بعد. ومارسته على أرض الواقع. في ضوء محدودية الخيارات أمام هذه الدول. فالسادات - اتفقنا أو اختلفنا معه - كان متميزا، وشجاعا وقام بما لايستطيع غيره ان يفعله.

ومحاكمة السادات - من خلال لون بشرته - أو من خلال اصل احساسه، مع ان الاحساس أمر شخصي، لا يشعر به إلا الشخص نفسه - يعد نقيصة في «مجالس الرجال» وتسهل عملية الطعن في حجة الكاتب. والنفاذ الى الداخل لتفكيكه، وتحويل المقالة الى شيء عبثي.

فالمحاكمة يفترض ان تتم من خلال المواقف، وقد تؤدي في المحصلة الى طريق آخر مختلف، والى نتائج قد لا تكون في صالح من حاول تسخير كل الامكانات من أجل «اغتيال شخصية معينة» والتشنيع عليها.

ان نظرة محايدة لـ : «ظاهرة السادات» تؤدي الى جملة من الحقائق ابرزها ان عبدالناصر الذي يثق هيكل به، وبقراراته هو نفسه من اختار السادات ليكون نائبا له، وليصبح فيما بعد رئيسا لمصر. ولا أظن ان ايا من كتابات هيكل يمكن ان تصل الى النيل من عبدالناصر الذي صنع هيكل أولا، وصنع السادات ثانيا. بعد ان لمس ما لديهما من قدرات، وبحكم ما توقعه منهما من قدرات ستنعكس على الوطن والأمة.

لكن هيكل - كما يبدو - لم يحترم قراراً من صنعه، وشن هجوما شنيعا على السادات. لكنه ركز على جوانب يسهل على أي باحث الطعن فيها. والتشكيك في صدقها.

فالرجل الذي حكم أكبر دولة عربية. وساهم في كل المحطات الفاصلة في الحياة المصرية. والعربية. لا يمكن ان يكون كله سلبيات. ولا يمكن ان يكون سجله اسود بالكامل.

وفي المقابل لا يمكن ان يكون هيكل مصابا بعمى الألوان. الى الدرجة التي لايرى فيها ايا من «الافعال البيضاء» وتقتصر رؤيته على «السواد» فقط.. وهي السمة البارزة في كل ماكتبه هيكل عن السادات سواء في خريف الغضب أو غيره.

ويبدو أن هذه القاعدة تطبق تماما على ماكتبه هيكل مهاجما بعض القادة العرب. والذين تركوا بصمات واضحة على الحياة في بلدانهم. وحتى في محيطهم العربي.

وليس أدل على ذلك من بعض كتاباته ضد الملك حسين. والتي جاءت بعد وفاته، وكانت معاكسة لبعض ما كتبه عنه أيام حياته.

فقد دلت الشواهد. ان هيكل كان على استعداد للجوء الى اختلاق بعض القصص، أو تحويرها، وتطويرها بشكل يخدم أغراضه، بدليل القصة التي رواها عن الملك حسين وأنه تبادل معه العشاء في أحد المطاعم. وأنه - اي الملك - كان يهدف من وراء ذلك الى استشارته في بعض المواضيع. ليتبين فيما بعد ان الملك الراحل كان قد روى هذه الواقعة لمقربين منه بأسلوب مختلف تماما. باختصار. يبدو ان هيكل، ورغم تميزه الواضح في الكتابة وفي السياسة، ورغم شهرته الواسعة التي تميز بها والتي كانت في جزء كبير منها من صنع الرئيس الراحل جمال عبدالناصر تحول فيما بعد الى ما يشبه «شاعر القبيلة» فمن اعطاه وأكرمه، و «احسن وفادته» كال له المديح، وجعله من «علية القوم» حتى لو لم يكن كذلك. أما من كان بعكس ذلك.طاله ما طال كافور الاخشيدي من هجاء، واتهامات لكن المزعج في هذا الجانب، ان الظاهرة المرضية، اوصلت استاذنا الكبير الى مستوى «الخطيئة» الذي استفحلت مشكلته فاصبح يستمرئ الهجاء، حتى وان كان المهجي هو نفسه .

الا أن ما يميز هذه الحالات، ان صاحبها لابد وان يعود الى وضعه الطبيعي، ولو للحظات بحيث يكون شاهدا على البراءة وان تسهم يديه في رد الاعتبار» لمن كان من ضحاياه، وهذا ما حدث بالفعل. والمقالة المقصودة: «وقفة مع الصديق الاميركي» والتي تكشف عن مدى التجني الذي لحق بالسادات جراء خلافه مع كاتبنا الكبير محمد حسنين هيكل.

أحمد الحسبان